# مدخل

**ما أشبه الليلة بالبارحة!**

الأرض أرض الإسلام، والذل ذل الطغيان، والاحتلال كأنه السرطان من بقعته يتمدد ليتوسع أو يقفز ليتوعد، والأمة أمة الإيمان تفيق على وقع الخطوب تستثار تصرخ وتصيح ولكنها من السكون وإلى السكون تعود كأنها في غيبوبة وليست هي خير أمة أخرجت للناس.

والقرآن عن واقع الحياة منحى لصالح العصبية الجاهلية والدعوة الفوضوية والمذاهب الضالة والمصلحون لا يكادون يملكون لهذا الطوفان دفعًا إلا من قلة تقارع وحدها في الميدان قد عجزت عن استجلاب معين، والمسلمين من حولهم بالملايين.

قد يقول البعض لماذا لا ننسى واقعنا الأليم؟ أو يرى آخر أن هذا وصف لماض معروف عندما اجتاح التتار الأرض كالسيل الهادر لا يلوي على شيء ولا يقف أمامه أحد، و قد

يظن غيره أن ذلك من قبلها عندما تم احتلال قلب الإسلام بواسطة الإمارات الصليبية التي جثمت على أرض الشام (سوريا ولبنان والأردن بالإضافة للأرض المقدسة بفلسطين).

هذا الوصف العام المبهم سقناه عن عمد لأن غرضنا هو ربط الواقع الحاضر بالماضي الغابر لنستلهم العبرة من أجل المستقبل، فلابد أن نتعلم من سجل النجاح وسجل الفشل، إنه تاريخنا فمن أين نعرف طريقنا إن غاب عنا، ومن أين ندرك هويتنا الحقيقية إن غابنا عنه.

وكيف نجيب عن السؤال الهام أين الأمة؟ هل تودع منها؟ أم هي في غيبوبة تامة أم اختلطت علينا الأعراض وإنما هو "الإحباط"؟ إحباط من لا يلوح له أمل ولا يعرف له طريق أو عمل ولا يجد قائداً بارجًا.

ولكي نصل لإجابة عن السؤال الأهم أين السبيل لتهب واقفة كما كانت دائمًا في شموخ تحمل (مصباح الهداية) راية الإسلام.

فهل يمكن أن نجد في تاريخنا ما يعين عمليًا على الوصول لمناهج بعث الأمة.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) ﴾ [آل عمران: ١٣٧-١٤٠]

## التاريخ قصص أم عبر؟

مما لاشك فيه أن التاريخ وإن كان مجموعة من القصص فهو أبدا لا ينفك عن العبر.

لكن الاستفادة من عبر التاريخ إنما تكون بحسب الكفاءة في تجريد الأحداث لتحصيل العناصر الأساسية ـ دون الغرق في بحار التفاصيل - ومن ثم إعادة الربط للوصول للقواعد، فالمقدمات المتشابهة تنتج نتائج متقاربة بقدر تماثل الظروف المحيطة في الغالب الأعم، فالكل يجري وفق سنن.

وبناء على تلك الملاحظة فإن على من واجه وضعا ما أن يتأمل ما سلف من الأوضاع لعله يجد الكثير ليفعل أو

يجتنب، فالسعيد من وعظ بغيره أو استفاد بتجارب من سبقه. لكن الأمر ليس بهذه البساطة فالجهد البشري يتأرجح بين الصواب النسبي والخطأ المطلق، وهناك من لا يستفيد من تجاربه الذاتية فأنى له و هذا الطريق.

**للمعتبر مسالك وللغافل مهالك**

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن التاريخ الواحد تتعدد مواطن الاستفادة منه بحسب المشارب والتحديات، و ها نحن نعرض لعدة اجتهادات لمحل بيت القصيد في بحثنا هذا:

كتب الجنرال يادين رئيس أركان حرب الجيش اليهودي عام ١٩٤٨، في مجلة الجيش الإسرائيلي، فتحدث عن تقدم الجيش المصري بحذاء الساحل على محور العريش تل أبيب، ثم (قال إنه كان يعلم من دراسته لتاريخ الحروب السابقة على هذه الأرض أن فلسطين دار لها بوابة ذات مصراعين: أحدهما غزة والثاني بير سبع، و أنه من الخطورة بمكان لأي جيش أن يتقدم من الجنوب إلى الشمال أو بالعكس وهو يجتاز هذه البوابة ما لم يكن في يديه كلا

المصراعين. فلما وجد الجيش المصري اجتاز غزة بهدف الوصول إلي تل أبيب دون أن يعني بالاحتفاظ في يده ببير سبع، وجد أن فرصته قد سنحت، فجمع القوات الإسرائيلية المتوفرة في يده في بير سبع ليقطع على الجيش المصري التقدم خط رجعته.

ثم عاد يقول إنه كان قد قرأ في دراسة للحروب الصليبية، أن صلاح الدين الأيوبي عبر من العريش إلي بير سبع على طريق لم يكن جزء كبير منه معروفا في ذلك الوقت، فذهبوا يبحثون عنه حتى وجدوه مطمورا في الرمال ..... فمدوا فوقها الشباك، ثم عبروا من بير سبع إلى عسلوج إلى العوجة إلى أبو عجيلة، فطلعت على مؤخرة الجيش المصري بالعريش في حركة تطويق سريعة، وبها مركز الإشارة لجميع القوات المصرية)[1]. و لك أن تتصور ما حدث بعد ذلك فهو يغني عن الاسترسال في النقل.

هكذا أوقع الغريب بصاحب الدار حفيد صاحب الانتصار، فالعبرة لست ميراث الغافل إنما هي حصادا المجتهد الباحث.

---

(١) الطريق إلى المدائن، أحمد عادل كمال، ١٥.

نعود مرة أخرى إلى التاريخ، البعض استفاد منه كمصدر للفخار لإعادة الثقة بالنفس، فهو يقول:

**ملكنا هذه الدنيا قرونا وأخضعها جدود خالدون**

البعض الآخر اختار نفس التاريخ محل بحثنا أبرزوه من أجل أغراض، كأن يستلهم الشباب منه قدوة، أو أن تتكشف حقيقة أنصاف الرجال فاقدي الديانة العملاء لأعداء الإسلام، وبظهورها تسقط الشرعية المزيفة.

**ولكن ماذا عن القادة؟ ما موضع العبرة لهم؟**

هناك من يراها في ذلك النص الرائع الذي يصف فيه ابن شداد القائد من قريب في صورة خالية من رتوش التزييف عارية عن الأغراض والأطماع، يقول القاضي ابن شداد: (وكان رحمه الله شديد المواظبة على الجهاد، عظيم الاهتمام به، ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد دينار ولا درهما إلا في الجهاد و الإرفاد لصدق وبر في يمينه، و لقد كان الجهاد قد استولى على قلبه وسائر جوارحه استيلاء عظيما، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، و لا اهتمام إلا برجاله ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث

عليه و لقد هجر في محبته أهله و ولده و وطنه وسكنه، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة و يسرة..، وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد، وأنا ممن جمع له كتابا جمعت فيه آدابه و كل آيه وردت فيه، وكل حديث.. وكان رحمه الله كثيراً ما يطالعه.. وكان الزمان شتاء والبحر هائجا شديداً و موجه كالجبال..، وكنت حديث عهد برؤية البحر فعظم ذلك عندي، واستخففت رأى من يركب البحر..، فبينما أنا في ذلك إذ التفت إلي وقال.. إنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وكبت هذا البحر إلى جزائرهم اتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت، فعظم وقع هذا الكلام عندي.. ومنعته فلا ينبغي أن يخاطر بنفسه فقال: أنا أستفتيك ما أشرف الميتتين؟ قلت الموت في سبيل الله قال: غاية ما في الأمر أن أموت أشرف الميتتين، فانظر إلى هذه الطوية ما أطهرها و إلى هذه النفس ما أشجعها وأجسرها اللهم إنك تعلم أنه بذل جهده في نصرة دينك رجاء رحمتك فارحمه، وأما صبره فلقد رأيته بمرج عكا و هو على غاية من مرض اعتراه

بسب كثرة دماميل كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه بحيث لا يستطيع الجلوس..، و كان مع ذلك يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر، و هو صابر من شدة الألم و يقول: إذا ركبت يزول عني ألمها حتى أنزل ) ابن شداد.

هكذا كان صلاح الدين، هكذا كانت نفسه المتوثبة لنصر دين الله لا تبالي بالتضحيات الجسام لا تبالي بالآلام، إن كثيرين يرون أن سبيل الإفاقة لأمة الإسلام من كبوتها هو بعثة قائد أهم ما يميزه على الإطلاق هذه الصفات الرائعة، إن هذا التصور لو ساد فأنه يعني في الحقيقة أن الشقة جد بعيدة بين الأمة و ذلك الأمل.

إن هذه الصفات اللازمة بداهة لكل قائد مسلم ليست هي الصفات التي تميز صلاح الدين عن غيره، فأمة المصطفي لم تخلو بحمد الله أبدا في كل عصر و في كل مصر من رجالات بهذه الصفات.

إن موطن العبر النافعة من سيرته شئ آخر هو عين موضع الخلل في واقعنا المعاصر هو عين ما تخوف منه الأعداء منذ غروب شمس الخلافة حتى الآن.

يقول الداهية هاملتون جب (عميد المستشرقين، عضو

مجمع اللغة العربية، مستشار الإمبراطورية البريطانية ): ( إن الحركات الإسلامية تتطور عادة بصورة مذهلة، تدعو إلى الدهشة، فهي تنفجر انفجاراً مفاجئا قبل أن يتبين المراقبون من أماراتها ما يدعوهم إلى الاسترابة في أمرها. **فالحركات الإسلامية لا ينقصها إلا وجود الزعامة، لا ينقصها إلا ظهور صلاح الدين جديد**. (وجهة الإسلام)

ولما صرح دكتاتور البرتغال سالازار: (إن الخطر الحقيقي على حضارتنا هو الذي يمكن أن يحدثه المسلمون حين يغيرون نظام العالم. سأله أحد الصحفيين: لكن المسلمين مشغلون بخلافتهم ونزعاتهم. أجاب: أخشى أن يخرج منهم من يوجه خلافتهم إلينا ) دمروا الإسلام أبيدوا أهله.

فهم لم ينسوا الدرس القاسي، ومازالت براكين الحقد تغلي في قلوبهم، فها هو الجنرال غورو بعد معركة ميسلون، كأني أنظر إليه بعين تحجر بها دمع الأسى، فها هو يتوجه لقبر صلاح الدين يركله قائلا: ( ها قد عدنا يا صلاح الدين... فأين أحفادك منك ) صحوة الرجل المريض- موفق بني المرجة/ ٢٧٦.

لكن الأسى لا يلبث أن ينقشع بشروق شمس الأمل

أن يذهب إلي قبره من يقول له: ها نحن قد جاوزنا البحر، لقد تحقق حلم صلاح الدين، فلابد أن يتحقق الوعد الحق: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝٨ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [سورة الصف: ٨-٩] ولابد أن تتحقق البشرى: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ» [رواية مسلم]

و«لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَلاَ يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الإِسْلاَمَ وَذُلاً يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ» [رواية أحمد] ... ﴿ ... وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١].

نعود إلى أصلنا مرة أخرى، ما هو موطن العبرة الأساسية من ملحمة صلاح الدين؟ الإجابة الصحيحة يرشد لها سؤال آخر، ما هي المعضلة التي نعيش وما الأمل الذي نرجو وما علاقة كل ذلك بتلك المرحلة، التي يمكن سردها كالتالي: تسلط الكافر الخارجي، هيمنة المرتد الداخلي،

التشرذم، الفشل، ثم وحدة أمام العدو فانتصار، هذا هو موطن البحث.

## باب: المشكلة والحل

### موطن العبرة هو حقيقة المشكلة ومنطلق الحل

ما هي حقيقة المشكلة وما هو منطلق الحل؟ يرى البعض أن المشكلة كانت في الاحتلال الأجنبي لأثرى منطقة عربية (فلم يكن البترول قد اكتشف بعد) والحل هو عمل عسكري.

المشكلة هي إذن احتلال أرض عربية والمطلوب إعادتها للعرب من خلال عمل عسكري (حطين) وما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، وموطن العبرة واضح أن تعمل الأمة على امتلاك أسباب القوة المادية وأن تطرح خلافاتها جانبًا حتى استرداد الأرض، فهكذا فعل صلاح الدين وهذا هو طريق صلاح الدين.

للأسف الشديد هذه الصورة الشوهاء لتجربة صلاح الدين هي السائدة الآن في الأدبيات التي تعالج موضوعه، وبالرغم من كونها محض تزييف فإنها قد سادت بفعل عدة قوى روجت لها، منهم الرافضون للحل الإسلامي رفضًا